وحيد بن بوعزيز
جامعة الجزائر 2

تجاذب الهويات بين النقد ما بعد الكولونيالي وتخليص الفكر من الاستعمار
قراءة في أعمال مصطفى لشرف

ملخص

يـرى بعـض الباحثـين أنّـه يمكـن إدراج أعـمال المثقـف الجزائـري مصطفـى لـشرف ضمـن حقـل الدراسـات الكولونياليـة و مـا بعـد الكولونياليـة. لكـنّ هـذا التصنيـف السريـع و المجحـف يهمـل الطبيعـة الخاصـة لنظـام الأشرف الفكـري.

فـإذا تأملنـا البعـد الهويـاتي، نـرى أنّ مفهـوم الأمـة يكتـسي عنـد المفكريـن المـا بعـد كولونياليـين قيمـة تتجـاوز حـدود الحداثـة التقليديـة بفعـل ظواهـر التداخـل الثقـافي التـي تفرزهـا أوضـاع الغربـة و التنقـلات المختلفـة.

في حـين أنّ هـذا المفهـوم عنـد لـشرف كلاسـيكي القيمـة يُخصّـص مـن خـلال بلـورة الذاكـرة الجماعيـة و اسـتشراف المصـير المشـترك و رهانـات المسـتقبل مـن منظـور سـياسي سـتند إلى نظـام الدولة/الأمـة.

نـودّ في هـذه الدراسـة أن نبرهـن عـلى اسـتحالة التوفيـق و التقاطـع بـين هذيـن النظامـين ، الأوّل عنـد لـشرف ينـدرج في مجـال تصفيـة الاسـتعمار و الثـاني ينتمـي إلى إشـكالية مـا بعـد الكولونياليـة عنـد إدوار سـعيد و هومـي بابـا.

Résumé

Plusieurs chercheurs pensent que l'œuvre du penseur algérien Mostefa Lacheraf peut appartenir au champ des études coloniales et postcoloniales. Mais cette catégorisation

quelque peu hâtive néglige la construction paradigmatique (au sens épistémologique) propre au système de M. Lacheraf.

Si nous considérons par exemple la dimension identitaire, nous voyons que le concept de la Nation a, chez les penseurs postcoloniaux, une connotation postmoderne en raison des phénomènes d'interculturalité et des hybridités produites par les situations d'exil et de déplacement diverses.

Par contre, le concept Nation chez M. Lacheraf est de nature classique, il se détermine par la construction de la mémoire collective et les enjeux du devenir dans une perspective politique proche du système État-Nation.

Nous voudrions, dans ce texte, démontrer l'impossibilité de faire des ajustements et des croisements entre deux systèmes de pensée et deux paradigmes différents: celui de la décolonisation chez M. Lacheraf et celui de la postcolonialité chez E. Saïd et H. Bhabha.

Abstract

Many researchers consider that Mostefa Lacheraf's works can be reattached with the field of postcolonial studies. But this hurried categorization neglects the specificity of the paradigmatic and epistemic construction of M. Lacheraf 'system of thinking.

If we consider the dimension of identity, we would see that the postcolonial conception of the Nation has a post modern connotation according to the intercultural phenomena and hybridization that occur in situations of exile and displacement of people.

At the opposite of those concerns, the concept of Nation for M. Lacheraf is more classical, it is determined by the building of the collective memory and the stakes of the future in a political point of view induced by the system of the State/Nation.

We aimed, in this paper, to show the impossibility of adjustment and crossing between the two paradigms: the first related to the process of decolonization for M. Lacheraf; the second related to postcolonial studies for E.Said and H. Bhabha.

هـل يمكـن قـراءة أعـمال المفكـر الجزائـري الراحـل مصطفـى لـشرف قـراءة مـا بعـد كولونياليـة؟ لـو طـرح هـذا السـؤال بطريقـة أخـرى لـكان كالتـالي: هـل يمكـن تطعيـم المقـولات النقديـة في الخطـاب التاريخـي السوسـيولوجي الـذي اشـتغل عليـه لـشرف بأبعـاد مابعـد حداثيـة؟ لـو كان ذلـك كذلـك ألا يؤثـر هـذا التقريـب المعـرفي عـلى ثوريـة كتـاب «الجزائـر، الأمـة والمجتمـع» مـادام الخطاب مابعـد الحداثي يتخـذ في كثير مـن الأحيـان طابعـا سـيوليا وزئبقيـا ينفـي مـا اصطلـح عليـه بالمقـولات الكليـة في الفكـر الحـداثي ويشـجع عـلى نسـف الـسرود الكـبرى.

لـو حـاول أي مشـتغل في حقـل النقـد الثقـافي أن يصنـع نوعـا مـن الأليغوريـا المعرفيـة التـي تحيـل عـلى فكـر مصطفـى لـشرف للاحـظ بـأن فرانـز فانـون أقـرب مفكـر إلى هـذا المجـاز الفكـري. لقـد عـاش الرجـلان الفـترة الزمنيـة نفسـها كـما عاشـا الـشرط الكولونيـالي بالطريقـة نفسـها.

كي نفهـم جوهـر الإشـكالية المطروحـة في هـذه المقاربـة كان لا بـد من العـودة إلى النقـاش الـذي سـاد حقـل الدراسـات الثقافيـة و الكولونياليـة حـول الفانونيـة. لأن فتـح فكـر مصطفـى لـشرف عـلى الدراسـات الثقافية ليـس بالأمـر الهـين، قـد يصـل الأمـر إلى قـراءة هـذا المـشروع وفـق آليـة

إسـقاطية تـروم إيصـال مقاصـد الخطـاب إلى منتهـى الـذروة فتقـع في مشـكلة **فائـض التأويـل** التـي تحـرف الموضـوع أكـثر مـما تطـوره وتفرغه مـن محتـواه الأكسـيولوجي أكـثر مـما تخدمـه.

لم يـأت هـذا الحكـم اعتباطيـا، فـما وقـع لفانون يبـين خطـورة الوضع، لقـد انقسـم المختصـون في صاحـب كتـاب «معذبـو الأرض» إلى قسـمين؛ قسـم يدعـي أن مقـولات فانـون حـول **تبـدد الشـخصية والاسـتلاب الكولونيـالي** تفـضي لا محالـة إلى براديغـم الهجنـة ولعبـة الـدوال، وكمثال عـلى ذلـك القـراءة الدريدويـة (نسـبة إلى الفيلسـوف جـاك ديريـدا) التي قـام بهـا المفكـر هومـي بابـا، مسـتعينا في ذلـك بنفسـانية لاكان ودولـوز، وكمثـال ثـان نجـد القـراءة الغرامشـية و الفوكويـة التـي قـام بهـا إدوارد سـعيد للحفـاظ عـلى طابـع الـصراع والجـدل.

قسـم آخـر يبـين بـأن خطـاب فرانـز فانـون لا يقبـل الانفتـاح عـلى مقـولات مـا بعـد الحداثـة التـي تتسـم بالسـيولة والعدميـة و التاجيـل والإرجـاء. مـن بـين هـؤلاء نجـد أليـس شرقـي ودفيـد مـاصي اللذيـن يعـدان مـن أبـرز المختصـين في فكـر فانـون وسـيرته الذاتيـة والفكريـة.

قـد يرجـع سـبب الاختـلاف في قـراءة مـشروع فانـون إلى الاعتقـاد بـأن الرجـل كان صاحـب فكـرة قـارة لا تتطـور ولا تنحـرف وتـزاح عـن أصلهـا وبداياتهـا. فمـن يقـرأ ويركـز عـلى كتـاب «بـشرة سـوداء أقنعـة بيضـاء» سـيلاحظ الطابـع المتشـظي الـذي اكتسـح لغـة هـذا الكتـاب وكأن الكتابـة عنـد فانـون أصبحـت موقفـا مـن العـالم الغـربي المنتظـم في نزعـة عقلانيـة مقيتـة. فكتابـة مخلخلـة تفضـح ادعـاءات النظـام في سـياق كولونيـالي متناقـض. لهـذا راح بعـض دارسي فانـون يركـز عـلى هـذا الانتشـار (ديريـدا) اللغـوي كي يقـرأ الرجـل قـراءة مـا بعـد حداثيـة.

مـن جهـة أخـرى ركـز دفيـد مـاصي و أليـس شرقـي عـلى الطابـع الثـوري الـذي اكتسـاه كتـاب «معذبـو الأرض» لمـا يحتويـه مـن قـوى التغيـير التاريخيـة والإيمـان بحركـة الفلاحـين في طـرد وخلخلـة البنـي الاسـتعمارية ذات الطابـع البرجـوازي.

لـو نقـوم بإطلالـة عـلى أهـم كتـب مصطفـى لـشرف سـنلاحظ الأمـر نفسـه، فكتـاب «الجزائـر الأمـة و المجتمـع» مفعـم بالتاريخيـة و الإيديولوجيـة التـي تتعكـز عـلى فكـرة مفادهـا أن أشـكال المقاومـة في السـياق الكولونيـالي تراجعـت كثـيرا في المناطـق الحضريـة في حـين بقيـت تضـج بـالإرادة وبنـوع مـن الوعـي الغريـزي في المناطـق الريفيـة.

أمـا كتـاب المرحـوم لـشرف الثـاني «أعـلام ومعـالم» فلقـد اتسـم بنـوع مـن الكتابـة البرقيـة الأقـرب إلى مـا يطلـق عليـه المفكـر الأمريـكي مـن أصـول فلسـطينية إدوارد سـعيد **بالأسـلوب المتأخـر Le style tardif**، في دراسـة طالـت أعـمال الفيلسـوف الألمـاني تيـودور أدورنـو في كتابـه «أخـلاق دنيـا» وبعـض الدراسـات الموسـيقية. المقصـود بالأسـلوب المتأخـر حالـة تنتـاب المفكريـن الكبـار في آخـر حياتهـم فتنطـلي عـلى كتاباتهـم أسـاليب تتسـم بالدائريـة واللانسـجام والتبعـثر، يكـون أقـرب إلى التخريـف ولكـن في الحقيقـة يعكـس نوعـا مـن التطـور المرحـلي الـضروري في حيـاة الكتـاب والمؤلفـين الكبـار. إن الوصـول إلى حالـة مـن الكتابـة الشـذرية و الخواطريـة في مرحلـة متطـورة مـن العمـر يبـين بـأن إرادة الانسـجام التـي عايشـت الكاتـب في بدايـة مشروعـه تعـد نوعـا مـن التواضعيـة مـع الجماعـة، في حـين يعكـس الأسـلوب المتأخـر حالـة مـن التفـرد الأنطولوجـي، بـل يجسـد هـذا النـوع مـن الكتابـة تماهيـا مـع البنيـة العميقـة للحداثـة في سـيرورتها وتصيُّرهـا.

انطلاقا من هذا الوضع يمكننا التكهن بأن قراءة لشرف قراءة مابعد الكولونيالية قد تخلق اختلافا في مقاربة أعمال الرجل، لأن التركيز على كتاب واحد قد يؤدي إلى قراءات مبتسرة كالتي حصلت مع فانون والتي حصلت مع ماركس. فماركس الشاب الذي مازال تحت نير الهيغيلية ولد تيارات ماركسية امتازت باليوتوبيا وامتلأت بالإيديولوجيا، في حين ماركس الشيخ ولد قراءات في كنف الماركسية أقرب إلى العلمية باعتمادها على الاقتصاد السياسي.

يتجلى التكهن الثاني، والمقصود من التكهن هنا التعرف على حدود وممكنات الظاهرة اللشرفية وفق مفهوم النقد الكانطي، في أن هذا المفكر الجزائري كائن مخضرم، عاش مرحلة الاستعمار بوعي ومابعدها بوعي أحدّ، لهذا فهو مقسم بين الفيلسوف التاريخي الذي يقوم بعمل النقد والتنوير وفك الحجب عن الإيديولوجيا الكولونيالية من جهة، كما يقوم مرات بعمل المثقف العضوي والبيروقراطي للنهوض بالجزائر ما بعد الاستعمار.

إن المثقف الذي عاش المرحلتين يعرف لا محالة أن النضال الثقافي لا يتوقف عند زمن الاستقلال التاريخي (1962) بل يكون في أوج اشتغاله بعيد الاستقلال لأن ترصدات الأمبريالية ستتطور في ميكانيزماتها الجديدة (الاستعمار الجديد) ولأن الدولة المستقلة حديثا ستواجه تحديات معقدة وعظيمة تقتضي استراتيجيات محسومة بدقة واستشراف سيناريوهات غنية لكي يتم تجنب خيبة الاستقلال. إن الاستقلال الحقيقي في هذا الحال تكون العبرة فيه بالحفاظ عليه أكثر من الظفر به.

على الرغم من الاختلاف الكبير والجوهري مرات الذي شمل تعريف الدراسات الكولونيالية ومابعد الكولونيالية فإن الكلي والشامل

في المسألة أن الثقافي المشروط بالتاريخي والاقتصادي يتصدر الكثير من التحديدات، لهذا سأختار هذه التعريفات محاولا مقاربتها بما كتبه مصطفى لشرف.

يعرف جورج بالانديه، أحد المختصين، الدراسات ما بعد الكولونيالية كالتالي: «تعين الدراسات ما بعد الكولونيالية زمرة من التعاليم والبحوث والمجلات التي تدور حول الحدث الكولونيالي وإرثه، والتي تم تكوينها في ميادين مختصة بجامعات انجلوفونية منذ الثمانينات. بعدما انطلقت مباشرة في معاهد الدراسات الانجليزية راحت تقتحم الاختصاصات المتباينة مستنطقة كل العلوم الإنسانية التي تعالج من بعيد أو من قريب ظواهر الهيمنة الثقافية: مثل الأنثروبولوجيا واللسانيات وعلم النفس والتاريخ والعلوم السياسية، إلخ.»[1]

يغلب على هذا التعريف الطابع الصحفي والتقريري، كما نلاحظ فيه تناسيا مهما للدراسات الأدبية التي يعد نقادها، مثل إدوارد سعيد وهومي بابا وبييل أشكروفت من النافذين والمؤسسين الحقيقيين لهذا الحقل الدراسي المهم بانطلاقاته النصوصية الأدبية وانفتاحه وتفرعه على اختصاصات أخرى في ميادين شتى. لعل أحسن مثال يدلل على نقدنا هذا هو كتاب «الاستشراق» الذي كتبه إدوارد سعيد والذي يعد فعلا انجيل الدراسات مابعد الكولونيالية. فانطلاقا من نصوص دي نرفال وفلوبير وكيبلينغ وأوستن الأدبية استطاع صاحب الكتاب تحديد بنية الخطاب الاستشراقي الذي تماهى مع الخطاب الإمبريالي عند اللورد بلفور وغيره. إذن تعد كل محاولة

1 - Smouts Marie-Claude, La situation postcoloniale, Éditions des Sciences politiques, 2007, Paris, p: 34

لتغييب المجال الأدبي في تعريف الدراسات ما بعد الكولونيالية ضربا من الوهم والخطأ الفظيع.

حاولت الدراسات مابعد الكولونيالية خلخلة المركزية الغربية في كل أبعادها، متخذة مرات شكلا من أشكال نقد الهيمنة والفوقية التي يعاني منها العقل الغربي الملوث بالأداتية و الاستعمار، نجد هذا الطرح واضحا في أفكار إدوارد سعيد، كما اتخذت مرات شكل نقد ذاتي اندرج تحت ما يسمى بدراسات التابع Les études subalternes كما هو الحال عند غياتري سبيفاك، وراحت مرات أخرى تحاول تأزيم الخطاب الكولونيالي بكشف النقاب عن تناقضاته وادعاءاته الميتافيزيقية للحقيقة؛ مثل هذا التيار بقوة هومي بابا وجوديث بوتلر.

بعدما كتب سلمان رشدي مقالا مهما في سنة 1980 وردت عبارة «الكتابة ضد الإمبراطورية» التي ستفتح تيارا في أستراليا يقوده كل من بيل أشكروفت وغاريث غريفيث وهيلين تيفين، فابتداء من سنة 1989 أصبح هم الدراسات مابعد الكولونيالية لا يكتفي بنقد وتفكيك الخطابات الكولونيالية بقدر ما يقوم بكتابة مضادة على هذه الخطابات. إن التعريف الجديد الذي أولته هذه الجماعة للدراسات ما بعد الكولونيالية أثر في كتابات الجيل الأول، لهذا تغيرت تقنية إدوارد سعيد مثلا حينما كتب كتابه المهم الثاني «الثقافة والإمبريالية» (1993) من فضح لتشكلات الخطاب الاستشراقي إلى البحث في أساسيات المقاومة الثقافية والكتابة المضادة أو ما يطلق عليه البعض السرديات المعكوسة.

عرفت جماعة أشكروفت الدراسات ما بعد الكولونيالية كالتالي: «إننا نستخدم مصطلح مابعد الكولونيالية ليشمل كل ثقافة تأثرت

بالعمليـة الإمبرياليـة منـذ اللحظـة الكولونياليـة حتـى يومنـا الحـالي. ويرجـع هـذا الاسـتخدام إلى اسـتمرار هـذا الانشـغال طـوال العمليـة التاريخيـة التـي بـدأت بالعـدوان الإمبريـالي الأوروبي. كـما إننـا نطـرح أيضـا هـذا المصطلـح لأنـه الأكـثر ملاءمـة، بوصفـه مصطلحـا للنقـد عـبر الثقـافي الجديـد الـذي ظهـر في السـنوات الأخـيرة، وللخطـاب الـذي يتأسـس مـن خلالـه ذلـك النقـد. يمكـن القـول إن هـذا الكتـاب معنـي بالعـالم كـما كان موجـودا أثنـاء فـترة الهيمنـة الإمبراطوريـة الأوروبيـة وبعدهـا، وبتأثـيرات تلـك الفـترة في الآداب المعـاصرة»[2]

يبـين هـذا التعريـف بـأن الدراسـات مـا بعـد الكولونياليـة لا تكتفـي بمعالجـة ورفـع الحجـب عـن فـترة مـا بعـد الاسـتعمار، بـل هـي تطـول المرحلتـين معـا، المرحلـة الكولونياليـة ومـا بعدهـا، لهـذا يقتـضي التعريف التفريـق بـين الاسـتعمار Colonialisme باعتبـاره مرحلـة تاريخيـة محـددة بزمـن معـين، وكولونياليـة Colonialité كحالـة ثقافيـة تشـمل القبـل والحـين والبعـد الاسـتعماري.

مـن جهـة اخـرى يقتـضي هـذا التعريـف كذلـك حالـة تفاعليـة برفـع كل **الوعـي الشـقي** بالمعنـى الهيغيـلي، فوضـع مصطلـح عـبر ثقـافي يوضـح بـأن العلاقـة القديمـة المتواجـدة بـين المسـتعمَر والمسـتعمِر أو العبـد والسـيد في المسـتعمرات أصبحـت مـن المـاضي حينـما تنتفـي هـذه الثنائيـة بالتفاعليـة. لم يعـد المسـتعمَر فقـط محـل تأثـر ثقـافي بـل يجـب أن يكـون فاعـلا في الآخـر بصناعـة كتابـة مضـادة تعيـد توزيـع علاقـة الـذات والموضـوع.

عـلى الرغـم مـن أهميـة كتابـات مصطفـى لـشرف إلا أننـا نلاحـظ بـأن رواد النقـد الثقـافي لم يعـودوا إلى كتاباتـه، والعجـب سنكتشـف

2 - أشـكروفت بيـل وآخـرون، **الـرد بالكتابـة، النظريـة والتطبيـق في أدب المسـتعمرات القديمـة**، تـر/ شـهرت العـالم، مركـز الدراسـات العربيـة، 2006، ص 16.

كذلك بأن المفكر الجزائري لشرف لم يستعمل في حدود علمنا نصا أو مقطعا استمده من كتابات الدراسات مابعد الكولونيالية.

يشكل النقد الماركسي للاستعمار الخلفية المعرفية التي يتقاطع فيها صاحب كتاب «الجزائر الأمة والمجتمع» مع النقد عبر الثقافي. لقد عرف العالم الحديث ظاهرة تعميم مرض البرجوازية على الجزء الضعيف الجنوبي من الكرة الأرضية، هذا المرض الذي كانت نتائجه الاستعمار على الرغم من كونه ظاهرة اقتصادية عكست تأزم الرأسمالية بانغلاق الأسواق إلا أنه يبين كذلك تراكم حالة ثقافية شيّأت العالم وضاعفت من استراتيجيات الهيمنة والاستغلال.

لا ننكر بأن إدوارد سعيد قد استعان بمصطفى لشرف في كتابه «الثقافة والإمبريالية»، حينما عاد إلى مقاله المبثوث في كتابه «الجزائر الأمة والمجتمع» (بسيكوولوجيا غزو). لقد كانت هذه الاستعانة أقرب إلى توظيف المعلومة من الاهتمام بقيمة المقال من الناحية التاريخية. لم يتفطن ربما المفكر الكبير إدوارد سعيد بأن سنة كتابة المقال كانت في 1956، وهي سنة دالة لأنها تعد السنة الثانية بعد اندلاع الثورة الجزائرية. كما أننا لو عدنا، زيادة على ذلك، إلى محتوى المقال فإننا سنعد زمن كتابته في هذه السنة نوعا من الدراسات ما بعد الكولونيالية السباقة في تحديد الاستراتيجيات التي كان يتخذها المستشرقون والرحالة والجنرالات مطية في جعل الجزائر موضوعا للدراسة أي موضوعا للهيمنة.

لم يكتف مصطفى لشرف في كتابه الأول بتأرخة زمن الاستعمار في الجزائر، بل حاول فهم هذه الظاهرة بالتكريس والاستعانة بعدة أدوات معرفية من نقد سوسيولوجي ماركسي إلى علم النفس إلى الأنثروبولوجية.

إن أهـم المصـادر التـي حـاول عـن طريقهـا فهـم ظاهـرة الاسـتعمار بصفـة عامـة والاحتـلال الفرنـسي للجزائـر بصفـة خاصـة تجعلنـا نرفع من قيمـة هـذا الرجـل لأنهـا مصـادر كان معظمهـا عبـارة عـن مخطوطـات في جامعـات فرنسـية أو كتـب لم يُتفطـن لهـا في قـراءة الآخـر الجزائـري قـراءة صوراتيـة.

نعطي بعض المراجع كي يتبين ما نحن بصدد التدليل عليه :

Duc d'Orléans, Campagnes de l'armée d'Afrique.

Changarnier, Mémoires.

Rousset, La conquête de l'Algérie.

Rousset, L'Algérie.

Daumas, La grande Kabylie.

Daumas, Les chevaux du désert.

Général Ducrot, Correspondances.

تعـد هـذه النـماذج محوريـة في سـياق كولونيـالي تكالبـي رسـم جزائـر مسـتعمرة لمـدة قـرن واثنـين وثلاثـين سـنة. لم تكـن حـرب الجزائـر حربـا عسـكرية فقـط بـل كرسـت فيهـا طاقـات فكريـة وثقافيـة لرسـم مخيـال ثقـافي إمبريـالي قـام عـلى فكـرة كتابـة الآخـر الجزائـري كتابـة تنطلـق مـن الـذات لهـذا راح يصـادر كل محاولـة يـروم مـن خلالهـا الأهـالي الخـروج مـن شرطيـة الموضـوع المـدروس كالطبيعـة إلى الذاتيـة التـي تعـد أول خطـوة في تحديـد الاسـتقلال.

تفطـن لـشرف بـذكاء إلى الدافـع اللاشـعوري المتـواري خلـف هـذه الكتابـات، فزيـادة عـلى الدافـع الاقتصـادي والثقـافي، تكمـن هنالـك

نزعة رومانسية عند الكتائب والجحافل العسكرية الفرنسية تروم استعادة الروح النابوليونية الضائعة التي تبجل البطولة التاريخية. فكل جندي وكل جنرال كان يحمل في جعبته روحا تنتظر تتويجات للتماهي مع تاريخ أقرب من القرن التاسع عشر، ونقصد بذلك، القرن الثامن عشر.

إن ما اكتشفه لشرف يبين بأن هذه الروح الرومانسية المثالية ذات الطابع الأناني تنافت مع فكرة الأنوار التي تمتاز بالكونية. لهذا فإن جشع الضباط وميولاتهم نحو التضخم الذاتي ولد في الجزائر -حسب تعبير لشرف الساخر- مأساة لاإنسانية. نعم لشرف يسخر من أشهر عناوين الرواية الفرنسية «الكوميديا الإنسانية».

اعترف الضباط الفرنسيون بقوة المقاومة الجزائرية، وهذا ما يريد تأكيده دائما لشرف في كتابته: « دون ان نرد الاعتبار للاعتراف، فإن الكثير من هؤلاء الضباط الذين عاشوا في طفولتهم الملحمة النابوليونية وبعدها إصلاحات لويس الثامن عشر والأمر الدولي الذي أخذ اسم الاتحاد المقدس وحالة في فرنسا ضعيفة من الناحية السياسية وغيورة من إنجازات وتفوقات الإنغليز ، عاش وأحس هؤلاء الضباط بكبت عظيم وبؤس، فكانت حرب إفريقيا بالنسبة لهم عبارة عن استرقاء وتحرير نفسي، إنها المناسبة الحقيقية لكي يجدوا أمام أعينهم اعتبارا خالوا أنه مفقود....

إن إسبانيا لا تبعد عن إفريقيا كثيرا لهذا نجد الجزائريين كالإسبانيين يتعاطون في مستوى قومي الاحتراب، «إن حرب العصابات كما يعترف دوق أورليون تؤلم الفرنسيين أكثر من كل الأعداء الآخرين، لأنها تمنع الجيش من النوم جاعلة إياه متأهبا تأهبا سرمديا» من

هنـا يـأتي الفـر والكـر ودوام الحـرب. إنهـا المرحلـة الحاسـمة بالنسـبة للحـرب في الحـرب»[3]

لـو قمنـا بمقارنـة نـص مصطفـى لـشرف مـع نـص إدوارد سـعيد فإننـا سـنجد نـص «الجزائـر الأمـة و المجتمـع» قـد جمـع الطابـع التفسـيري الـذي يبـين الكيفيـة التـي سـهلت عمليـة الاسـتعمار مـع الطابـع الضـدي الـذي تجسـد في المقاومـة الجزائريـة بأشـكال متعـددة. إن هـذا الجمـع بـين التشـكل الاسـتعماري والتشـكل الثـوري جعـل كتابـة التاريـخ عنـد لـشرف بمثابـة خطـاب يسـير في اتجـاه معاكـس للتاريـخ الكولونيـالي؛ فهـذا الخطـاب التاريخـي حـاول مليـا جعـل المـاضي الاسـتعماري عبـارة عـن حالـة سـتاتيكية لـكي تـبرر أكذوبـة الرسـالة الحضاريـة، فـكأن فرنسـا دخلـت إلى الجزائـر بطريقـة عفويـة وهادئـة لأنهـا سـايرت قوانـين الطبيعـة. إن كتابـة التاريـخ عنـد مصطفـى لـشرف بينـت بـأن تاريـخ الجزائـر الاسـتعماري امتـاز بالـصراع و الدينامية لهـذا فهـو يفـرز مفهوما ثانيـا للتاريـخ الكولونيـالي قائمـا عـلى المقاومـة والـصراع والـردع.

إن كتـاب إدوارد سـعيد «الاسـتشراق» لم يكتـب التاريـخ الاسـتعماري للشـعوب المهيمـن عليهـا في القـرن التاسـع عـشر والقـرن العشريـن بهـذه الطريقـة، بـل راح يـشرح خطابـات المسـتشرقين مبينـا تواطؤهـا مـع المؤسسـة الاسـتعمارية، لهـذا تراجـع في مقدمـة كتـاب «الثقافـة والإمبرياليـة» عـن هـذا الـدرب مـن الكتابـة مبينـا بـأن التاريـخ كي يكتمـل ويتخـذ شـكله الخالـص لابـد أن يعتمـد عـلى مـا يسـميه بالقراءة الطباقيـة أي القـراءة التـي تكتـب التواشـجات والصراعـات والتداخـلات والعبريـات الثقافيـة والسياسـية والعسـكرية. لقـد كـرس إدوارد سـعيد في كتابـه المذكـور أخـيرا فصـلا كامـلا للمقاومـة الثقافيـة كـما تجلـت في

3 - Lacheraf Mostafa, *L'Algérie: nation et société*, SNED, Alger,1965, p 91.

كتابات مضادة ومرويات معاكسة دشنها إيمي سيزار وفرانز فانون اتشيبي شنوا والطيب صالح.

لم يكن كتاب «الجزائر الأمة و المجتمع» كتابا في التاريخ الكولونيالي، بل طالت الكثير من النصوص فيه التاريخ مابعد الكلونيالي، فكما سبق أن ذكر أعلاه أن مصطفى لشرف يعد من المثقفين العضويين الذين انبروا لتفكير جزائر ما بعد الاستعمار، لهذا نجد في كتابه هذا بعض صيحات التحذير من انحرافات كثيرة اعتورت الجزائر بعيد استقلالها.

كتب لشرف تحت هذا العنوان الفرعي: دروس من الأزمة: العودة إلى الحس السليم و التواضع، مايلي: «لقد أَمْثلنا الثورة في دوائرها العليا على الصعيد الإيديولوجي و الصارم، وتناسينا الواقع. لقد أصبحت عبارة عن آليات رتيبة وبسيطة، في حين، تعد الثورة في جوهرها عبارة عن دينامية حقيقية راحت تتبلور في أطراف أخرى، عند الإطارات العمالية الواعية، أي في كنف الشعب، ولنقل ذلك بكل وضوح، لقد بقيت الثورة فقط عند نخبة صغيرة من المثقفين المعادين للبورجوازية المتواجدين أقرب إلى الجماهير من بعض المسؤولين المهووسين بالشعبوية و الديماغوجية.

لقد سبق أن تحدثنا قبل هذا المقام عن علامات الضعف والقوة في الثورة الجزائرية، وعن المخاطر التي يمكن أن تعتريها كالعودة إلى الإقطاعية ونشوء العقل الجهوي والمغامرة الارتجالية.[4]

يبين هذا النص الذي كتب في سنة 1962 بأن مصطفى لشرف كان بعيدا عن التصور الرومانسي والمثالي للثورة، فالرجل كان على

٤ - Ibid.,p 298

وعـي كبـير بالمخاطـر التـي يمكـن أن تعتـور الثـورة الجزائريـة في مهدهـا كالسـقوط في معاقـل وشراك الاسـتعمار الجديـد القائـم عـلى فكـرة التبعيـة الاقتصاديـة، كـما كان عـلى علـم بالمخاطـر الداخليـة كصعـود نزعـة ديماغوجيـة وشـعبوية فارغـة مـن القيمـة الحضاريـة والدوافـع الثقافيـة الواقعيـة.

إن هـذا التركيـز عـلى المثقفـين المعاديـن للبرجوازيـة يبـين تقاطـع فكـر لـشرف مـع فكـر فرانـز فانـون، فالخـوف الكبـير الـذي كان يهـدد اسـتقلال الجزائـر تواجـد برجوازيـة وطنيـة ذات مـشروع فـارغ كانـت مهيـأة لقيـادة الجزائـر وفـق أجنـدة اسـتعمارية. لقـد حـدد فرانـز فانـون معـالم البرجوازيـة الوطنيـة في كتـاب «معذبـو الأرض»، وهـي بتعبـير مـا برجوازيـة حضريـة تراجعـت دوافعهـا الثوريـة بسـبب الرفاهيـة النسـبية التـي عاشـتها في كنـف الاسـتعمار. لهـذا يتفـق فانـون مـع لـشرف في أن أولى الطبقـات بقيـادة الاسـتقلال تكـون مـن الفلاحـين الذيـن اكتـووا وعاشـوا حقيقـة الاسـتعمار مـن فقـر وتجويـع وترويـع.

فعـلا تفطـن لـشرف قبـل فانـون إلى مـدى قـدرة وقابليـة هـذه الطبقـة عـلى القيـادة، لهـذا راح لـشرف يبتكـر مصطلحـا جديـدا يكيـف الريفـي مـع الحـضري وهـو الريفـي الحـضري Le rurbain لكـن بينـت الأيـام كـما اعـترف لـشرف في مقدمـة كتابـه الأول بـأن الخطـر الأسـاسي الـذي حـال دون رجـوع الجزائـر إلى مصـاف الـدول الناميـة والمتحـضرة ظاهـرة ترييـف المدينـة التـي أصبحت بسـبب فشـل المشـاريع السياسـية الارتجاليـة وصعـود مافيـة اقتصاديـة اقطاعيـة وظهـور الجهويـة القاتمـة ظاهـرة سـلبية تكبـل تطـور البلـد أكـثر مـما تفتحـه وتـسرع بدخولـه في المعادلـة التاريخيـة العالميـة.

على الرغم من الطابع الأكاديمي الذي اشتهر به مصطفى لشرف إلا أنه لم يستفد كثيرا من القراءات النقدية ما بعد الحداثية، التي كانت ستفتح له طرقا جديدة في مقاربة الكثير من النصوص الكولونيالية.

إن غلبة الطابع التاريخي الخارجي على أفكار مصطفى لشرف جعله لا يتفطن مرات إلى أن الخطاب الاستعماري لا يحتوي فقط على بنى شعورية بل يحتوى أساسا على بنى لاشعورية. فعند مقاربة لشرف لنصوص الرسام والأديب نصر الدين/إتيين ديني نلاحظ تعاطفا كبيرا مع هذا الأديب والرسام الذي اعتنق الإسلام ودفن بمدينة بوسعادة التي يكن لها لشرف احتراما كبيرا.

يقول لشرف في كتابه «أعلام و معالم» :»لقد كان الإنسان ديني في نظري، ذلك الروح المفعم بالعدل و الحقيقة، لأنه قبل ان يعتنق هذه العقيدة الجديدة وقبل أن يتقوى بها راح يلتزم بتعاليمها بورع وليس كما هو حال الذين يعتنقون السهولة وفلكلورية المظاهر الخارجية واللباس» [5]

في اعتقادي لا تعد هذه القراءة لإتيين ديني قراءة عميقة أو خالية من التعاطفية، لأن اعتناق المستشرق، مهما كان، للإسلام لا يعني البتة أنه تخلى كلية عن بنيته التفكيرية اللاشعورية.

لقد بين إدوارد سعيد في كتابه الاستشراق بأن الخطاب الاستشراقي ساهم في خلق عالم شرقي مغربن Occidentalisé وفق تشكلات خطابية معينة. فالرسام المستشرق كما هو الحال في أعمال دولاكروا أو فرومونتين أو دينيه ينطلق من سجل استشراقي يحول المرأة الشرقية مثلا إلى موضوع رغبة وشهوة.

5 - Lacheraf Mostafa, *Des noms et des lieux*, Casbah Édition, Alger, 1998, p59

لم يقتصر الأمر على الرسامين فقط بل طال الأمر كتب الكثير من الأدباء الذين سبقوا دينيه ورسموا نمطية المرأة الشرقية ابتداء من دونرفال، مرورا بفلوبير في رحلته المصرية ووصولا إلى بيير لوتي وإتيين دينيه.

نشر نصر الدين/إتيين دينيه عند عودته من الحج سنة 1927 نصا دالا في هذا السياق، إنه نص «خضرا، راقصة ولاد نايل» لم يستطع دينيه في هذا النص تجاوز الخطاطة التي نمطها الكتاب الأدباء المستشرقون قبله، فخضرا من بداية الرواية إلى نهايتها كانت موضوع اشتهاء جسدي أعاد إنتاج الصورة النمطية للحرارة الإيروسية الشرقية التي استغلتها المؤسسة الاستعمارية لدفع المواطنين المكبوتين في الميتروبول للنزول إلى المستعمرات.

في اعتقادي لم تكن نصوص دينيه لتنجح لو تجاوزت هذا الخطاب وتكلمت عن شرق مشرقن Orientalisé لهذا فإن الاعتقاد بأن دينيه يعكس الحقيقة والعدالة يعد نوعا من القراءة العاطفية التي نتعجب من كاتب مثل لشرف كيف يسقط في شباكها. إن تبيين الطابع الاستعماري اللاشعوري لدينيه لا يعني هنا الطعن في نواياه الإيمانية أو في اعتناقه للإسلام، تعلمنا هذه القراءة التفريق بين مقاصد الشخص الإيمانية والفكرية وبنى خطاباته اللاشعورية المتحكمة في نصوص ورسوماته.

حينما نرسم اللوحة الكاملة لفكر لشرف يمسنا اعتقاد جازم بأن فتح فكره على الدراسات ما بعد الكولونيالية لا يمكن أن يتجسد دون تحريف وتشويه لجوهر كتاب «الجزائر الأمة والمجتمع» ويعود ذلك في اعتقادي إلى فكرة الوطن التي ينطلق منها دائما لشرف

في كتاباتـه: «الجزائـر الأمـة و المجتمـع» و»أعـلام و معـالم» و»القطائـع و النسـيان» و «التاريـخ، الثقافـة و المجتمـع» فهـو وطـن مغلـق نتـاج فكـر أنـواري يعقـوبي يحتـوي عـلى روح ويتحـدد انطلاقـا مـن أسـاطير مؤسسـة. أنـه وطـن بالمفهـوم الكلاسـيكي تولـد مـع ظهـور مـا يسـمى بالدولـة الأمـة.

لا يمكـن البتـة لهـذا المفهـوم أن ينسـجم مـع مقـولات النقـد مـا بعـد الكولونيـالي، لأن مفهـوم الوطـن عنـد هـؤلاء نوسـتالجيا مرجـأة إلى زمـن لا يـأتي، لهـذا يصبـح مفهـوم الدياسـبورا المعتمـد عـلى الترحـال والمنـافي بمثابـة براديغـم بديـل لبراديغـم الوطـن الصـافي.

لقـد احتفـى إدوارد سـعيد كثـيرا بمقـولات الفيلسـوف تيـودور أدورنـو عـن الوطـن القائـم عـلى التحديـدات الإنسـانية وليـس عـلى التحديـدات الجغرافيـة والتاريخيـة. كـما احتفـى هومـي بابـا كثـيرا بالمفاهيـم التـي أرسـاها الفيلسـوف الالمـاني و الـتر بنيامـين عـن الوطـن، وطـن المقموعـين الـذي يقـوم دائمـا عـلى «الحـالات الاسـتعجالية»

ولأن معظـم النقـاد مـا بعـد الكولونياليـين مـن دول العـالم الثالـث ويعيشـون في الغـرب فـإن مفهومـا للوطـن يقـوم عـلى البعـد الإنسـاني والتحديـدات النوسـتالجية لا يعـد مـن قبيـل المصادفـة أو لا يحـث عـلى التعجـب، لهـذا اعتقـد أن ربـط فكـر لـشرف القائـم عـلى براديغـم وطـن صـاف مـع فكـر يقـوم عـلى براديغـم الهجنـة نـوع مـن الربـط القـسري والإسـقاط المجحـف في كلا الحقلـين.

ولكن!

عـلى الرغـم مـن أن فكـر مصطفـى لـشرف لا يمكـن فتحـه عـلى مقـولات النقـد مـا بعـد الكولونيـالي للاختـلاف الجوهـري في بعـض

المقـولات الأساسـية، فإننـا لا نجـزم بوجـود تيـار مـا بعـد كولونيـالي واحـد يكتسـح السـاحة، فهنالـك تيـارات لا تعتمـد أساسـيات مـا بعـد الحداثـة في انطلاقاتهـا النقديـة لمقـولات الاسـتعمار وهـي اقـرب إلى فكـر مصطفـى لـشرف لأنهـا مـا زالـت تؤمـن بفكـرة بنـاء الوطـن قبـل النـزوع إلى محـوه باسـم العالميـة والإنسـانية. بكلمـة واحـدة وبـكل وضـوح لا يمكـن أن نعمـم مقـولات المنـافي عـلى المسـتعمرات القديمـة لأن تجربـة المنـافي فعـلا تجربـة مـا بعـد كولونياليـة وتجربـة بنـاء الدولـة كذلـك تعـد تجربـة مـا بعـد كولونياليـة.

إن مـا يميـز فكـر لـشرف نـزوع نحـو تصفيـة الاسـتعمار في التاريـخ والثقافـة والفكـر وعلـم الاجتـماع، لهـذا فهـو يكمـل مشروعـا ابتـدأه محمـد الشريـف سـاحلي في كتـاب «تصفيـة الاسـتعمار في التاريـخ» ويشـتغل عليـه الآن الكثـير مـن المفكريـن الأفارقـة منهـم أخيـل مامبـي والمفكـرة ذات الأصـول الهنديـة آنيـا لومبـا.

يقـول أخيـل مامبـي في مقطـع يشـبه التنبـؤ وهـو بيـان في تصفيـة الاسـتعمار: إذا أراد الأفارقـة أن يقومـوا ويمشـوا، لابـد لهـم مـن الآن فصاعـدا أن يـروا في جهـة أخـرى بعيـدة عـن أوروبـا. إنهـا ليسـت عالمـا ينهـار، ولكـن للأسـف فهـي تمثـل عـالم الحيـاة المتهافتـة وغـروب الشـمس الشـاحب.. لا بـد لإفريقيـا أن ترفـع بصرهـا لمـا هـو جديـد. لابـد أن تتموضـع في المشـهد وتقـوم بمـا يجـب أن تقـوم بـه منـذ مـدة لأنـه لم يكـن مسـتحيلا، لابـد أن يخالجهـا وعـي بأنهـا يمكـن أن تفتـح للإنسـانية شـيئا جديـدا لم يكـن مـن قبـل»[6].

6 - Mbembe Achille, *Sortir de la grande nuit, Essai sur l'Afrique décolonisée,* Éditions Chihab, 2013, Alger, p243.